قضايا النهار

ميشال شيحا: خاطبنا في حياته ويخاطبنا بعد موته

ميشال أنّدّه

لست اجدني في حاجة الى التعريف بميشال شيحا، هذا المثقف المفكر، الكاتب، الصحافي، الشاعر، الخلاق الفذ في كل هذه الحقول من الابداع والمعرفة. لكن ما تميز به هذا الرؤيوي المتنبئ بالدرجة الاولى، وما جعل منه هذا العملاق الكبير، وادخله الى التاريخ من بابه الواسع، انما هو انهماكه المعرفي والسياسي والكتابي المعمّق بشواغل القضية الفلسطينية حتى آخر يوم من حياته. وتعلمون ان آخر مقالة حبّرها على فراش الموت لم يكن موضوعها غير القدس وفلسطين، قبل اربعة عشر يوما من انطفاء قلبه عن الوجيب في ٢٩ كانون الاول ١٩٥٤. لكأنما فلسطين دائما آخر نبض خفق في قلبه.

قصاراي هنا ان اتوفق الى استثارة الدعوة لقراءته مجددا ودائما. وامنيتي ان اتوفق الى المطالبة بتدريس كتابه هذا عن فلسطين في مراحل التعليم الثانوي وفي التعليم العالي بخاصة.

ليس في امكان احد ان يتصور مدى القدرة التي تجلت عند ميشال شيحا على التنبؤ بما سوف يحصل، واكاد اقول النبوءة حقيقة. فلكم تخوف منذ ثلاث وخمسين سنة، وحتى مماته في ١٩٥٤، من العديد العديد من المخاطر الملموسة التي سوف تقع على لبنان وفلسطين والعرب من جراء انشاء هذا الكيان الصهيوني.

ولكم حذّر داعيا الى التنبه الى هذه المخاطر التي رآها واقعة لا ريب في وقوعها ان لم يجر تداركها. وما تخوف منه، منذ ذلك الحين، لا يزال الى الآن موضوع تخوف من قبلنا اليوم، وموضوع خشية، وموضوع وجوب الحذر من تكرار الوقوع به.

ومن هذه الحقائق/ المخاوف/ المغيّبات، نكتفي بتعداد الآتي مثالا لا حصرا:

– انسياقنا او انسياق بعضنا الى توهم انقسام ولاة الامر في اسرائيل بين معتدلين ومتطرفين. فاسرائيل، مذ ولدت، تتابع الخطط ذاتها، الاستراتيجية ذاتها في التوسع والسيطرة والهيمنة وقضم الاراضي والاحتلال. اما التغيّر الطفيف باللهجة او بالاسلوب في التعبير عن هذه المواقف ذاتها فليس اكثر من تمش مع مقتضيات الظروف.

الامور واحدة اسرائيليا، سواء مع شاريت، او بن غوريون او بيغن او شارون او رابين او نتنياهو.

وما نواجهه الآن من مصاعب حقيقية، كان ميشال شيحا قد نبّه الى وقوعها، ودعا الى استباقها بالتيقظ اليها.

ولسوف احصر كلامي بأبرز المواقف والاضاءات النيّرة التي اطلقها ميشال شيحا، ولا تزال صحيحة كل الصحة حتى يومنا هذا، وهاجسي الاول أن ابرز ان هذا الرجل قد كشف حقائق الامور منذ البداية، وقبل ان ترتسم معالم تفاصيل ذلك المشروع الذي كان في بداية تكاوينه وقبل وجود دولة اسرائيل.

١– مرحلة الاخلاق في أنهيار: ١٩٤٥ – ١٩٤٧

– خاطب ميشال شيحا العالم كله في ٥ كانون الاول ١٩٤٧ اي بعد خمسة ايام من قرار التقسيم قائلا:

"ان قرار تقسيم فلسطين بخلق الدولة اليهودية من اعظم الضلالات التي اجترحتها السياسة المعاصرة. فلسوف يستتبع هذا الامر وان بدا يسيرا، اعجب العواقب، ولا نكون قد امتهنا العقل ان قلنا ان هذه القضية الضئيلة ستعمل على زعزعة الارض من اساساتها".

وهل ثمة اعمق وادق من هذه الرؤية التي لم تكن الاحداث اللاحقة الا تجسدا لما قال؟

٢– مرحلة التخلي عن ارض المَقْدس: ١٩٤٨–١٩٥٠

– في ١٨ ايار ١٩٤٨، اي بعد ثلاثة ايام على اعلان قيام الكيان الصهيوني، وقبل ان تتكون هذه الدولة بعد، وقبل ان تتوضح معالم توجهاتها وسياساتها الصريحة، نبه ميشال شيحا الى المدلولات الخطيرة الآتية، حتى قبل بوادرها: "... فان قوة اسرائيل العالمية التي تمثلها في تل ابيب حكومة ذات سيادة، تجتمع كلها على البلدان العربية وعلى استعبادها الاقتصادي، من اجل سيطرة سياسية آتية".

وبمواجهة ذلك الخطر الآتي، دعا ميشال شيحا العرب الى المبادرة للمقاومة، في المقالة ذاتها: "ليست المقاومة العربية امرا لازما فحسب، انما لامر حيوي. ولسوف تضحي مع الزمن، بالنسبة الى الشرق الادنى من اليابسة الآسيوية الى مصر، قضية حياة وموت حقا وواقعا". هذا النداء الذي اطلقه منذ تسع واربعين سنة، لا يزال يعبّر الى الآن عن حقيقة الوضع وعن مقتضيات الواقع الراهن.

– لقد اعتبر المقاومة واجبا حيويا، لانه استقرأ منذ البدء الطبيعة التوسعية العنصرية لهذا الكيان: "فلو لم تكن المطامح اليهودية ما هي، لما اتت تقديراتنا قاتمة، ولا هواجسنا واسعة بهذا المقدار. غير ان لبنان هو اول ما يبتغي الدفاع عن نفسه. وفي ما تتوخاه مملكة اسرائيل الجديدة، هو ان تربي على اسرائيل القديمة".

وفي ٢٨ ايار ١٩٤٨، ذكّر ميشال شيحا بمذكرات "جيمس ف. بيرنز" عن التوسع الاقليمي والامن المزعوم: "فيما انا اتمحص هذه المسألة لا يسعني الا التفكير في اناس يبتغون شراء دار او مزرعة مجاورة لبيوتهم وديارهم وليس ثمة من يجمل هذا الضرب من البشر. وسرّ الصعوبة انه لا بد من وجود دار او مزرعة مجاورة على الدوام".

على هذا القول يعلق شيحا بقوله المحذّر: "فنحن الدار، ونحن المزرعة المجاورة، ولسوف نظل دارا ومزرعة، مباشرة او مداورة. فلنتيقن من ذلك وليعلم رفاقنا السوريون مدى تعرضهم للخطر المداهم".

وهذا الكشف الفاضح لمفهوم الامن الاسرائيلي المزعوم اطلقه ميشال شيحا بعد ثلاثة عشر يوما فقط من اعلان الدولة الصهيونية. أوليس هو هو الذي ما تزال اسرائيل تتابع انتهاجه؟؟

– وفي سياق تحذيره العرب، ودعوته الى معرفة عدوهم على حقيقته، والى الاقلاع عن الاستخفاف بما حصل، تراه يكتب في ١٢ حزيران ١٩٤٨: "يجب ان نضع نصب اعيننا ان اسرائيل اضحت دولة عالمية، وليست تلك الهفنة من المشردين والمضطهدين الباحثين عن ملجأ تحت السماء، كما شاؤوا ان يصوروها لنا".

والاهم بالنسبة اليه كان الا يصدق العرب ذلك. وان يعدوا العدة لمواجهة دولة عالمية القدرات والقوة، في وقت ظن العرب انهم سيحققون النصر على هذا الكيان بكل سهولة ويسر. ولم يدركوا – وللاسف – عالمية هذ القوة وقدرتها على بسط سيرتها وهيمنتها.

– وفي ٥ تموز ١٩٤٨ اي بعد شهر وعشرين يوما من اعلان الكيان الصهيوني، لم يكف عن نقد مواقف العرب غير المبالية وغير المدركة لكامل ابعاد الخطر الذي يداهمهم: "... برغم المخاطر التي تنجم عن الدولة اليهودية، فالبلدان العربية لم تدرك بعد ان خطر الدولة اليهودية اعظم ما يتهددها من مخاطر. والواقع ان هدف اسرائيل هو استلاب العرب ملكهم، من البحر المتوسط حتى الفرات، آجلا او عاجلا... فان سلم العرب كانوا كمن اقحم نفسه في الظلمة مختارا، وكان تسليمهم انتحارا.

... فعلى العرب، كيفما تطورت وساطة الكونت برنادوت، ان يستفيقوا من شبه الغفوة التي يستسلمون لها، ويناضلوا بجميع الوسائل المشروعة، وجميع قواهم..."

– وفي ٧ تموز ١٩٤٨ يتابع صرخته: "لم يتبق للعرب مورد الا الحرب الدفاعية التي فرضت عليهم فحسب، بل ثمة مورد لا ينتهي، صمود لا بد ان يتجلى، وان يشتد يوما على يوم".

ويسخر من توهم اسرائيل قيام سلمي مبني على العنف، وهي التي غرست بذوره: "انه لجنون من قبل اسرائيل حقا ان تناشد في فلسطين للعنف سلما يدوم. ينبغي ان يعلم اليهود، ان هم مضوا في عنادهم، واستطاعوا الصمود، انهم سائرون لا محالة نحو حرب "المئة عام".

وكل هذا الاستقراء للآتي، واسرائيل في شهور ولادتها الاولى!! فلا سلام على الاطلاق مبنيا على العنف في نظر ميشال شيحا.

– في ١٨ تموز ١٩٤٨، يتوقف ميشال شيحا عند تراخي العرب عن الاعلام عن قضيتهم المحقة. مخلين المكان والساحة للاعلام الصهيوني الذي غرس في اذهان العالم ان العرب هم الجلادون المعتدون، واسرائيل هي المعتدى عليها والضحية: "لقد غلا العرب في مبلهم الى الانعزال ببرجهم العاجي عن العالم والحياة، فافسحوا المجال للدعاوات المعادية. اليهود، لا العرب، هم الذين تيسر لهم ان يختلقوا سوابق رأي يلائمهم في بلدان تقرير المصير، رغم انف كل عدالة. فملأوا الكون بالتوسل والصراخ، وعمدوا الى شتى اساليب الضغط، وسخروا جميع الحيل..."

فلقد انتبه ميشال شيحا باكرا جدا، لأهمية الجبهة الاعلامية، ولتقصير العرب وغيابهم في هذه الجبهة وعنها. وحاول ان يدفعهم للملاحظة بأن اسرائيل المطالبة بباطل تجعل منه حقا، وان العرب القاعدين عن المطالبة بحقهم، عن معرفة التعريف به، يجعلونه باطلا، او مطموسا.

وكأننا بميشال شيحا لم يدع شاردة ولا واردة تتصل بتعزيز موقع العرب الا وناشدهم الانتباه اليها...

– ومنذ ذلك التاريخ، وقبل تبلور الكيان والدولة المغتصبة، ثابر على تفتيح اعين اللبنانيين والعرب على كنه ما ينطوي عليه المشروع الاسرائيلي: "انما الخطر الطامي بنا وبجيراننا لا يحدّ. فهو مشروع وفّاح، جسور، من السيطرة الاقتصادية والمالية والصناعية والتجارية ومغبته تجاوزات اقليمية وسياسية وارتهان اعناقنا بمثل نير ارزح بل واستعباد".

وتنبأ كذلك، ومنذ هذا التاريخ نفسه (١٨ تموز ١٩٤٨) باندلاع حرائق التعصب الجنوني: "اذ لا يلوح وراء هذي القضية شيء غير اندلاع تعصب مستشر وسخط هائل من التزمت، ودمار ودم ودموع كثيرة في امصار عديدة".

وهل نشهد اليوم غير هذه الحرائق تلف بلدان المنطقة، وما هو ابعد من هذه المنطقة؟

– وفي ٤ ايلول ١٩٤٨، ولم تكن اسرائيل قد تركّزت بعد بالفعل، يصرخ ميشال شيحا: "القدس في خطر... وجليّ ان مطمع اليهود يصبو الى الاستيلاء على القدس، ليجعلها، مرحلة اثر مرحلة، وطن اليهود الام. اذ لا صهيونية بلا صهيون. ودولة اسرائيل لن تفني ابدا عن القدس..."

"انها الدولة اليهودية رأس جسر، ونقطة انطلاق، وبداية، ولقد بيّنا ذلك غير مرة. انها سبيل لاغتصاب فلسطين برمتها، وارض ما وراء الاردن شاسعة، واصقاع بسوريا اخرى، اي ما كان في حوزة الاسباط الاثني عشر. وان عنت السانحات، من بعد، فامتلاك ما كان قديما لاسرائيل، وفوقه. ما كان عليه وطن ابرهيم".

فالتقسيم – رآه – مرحلة، ومنطلقا، الى ما هو ابعد. وجاءت الوقائع تؤكد ما رآه.

رؤية هذا السلطان على حدودنا يتسع، والى تحميل الثقل الساحق بوجوده، ومحاولاته والى الاشتراك في تحبير المراثي، اما سوريا، وشرقي الاردن، ومصر، فانها شرعت ترتاب في ما ينوبها.."

لكن ميشال شيحا لا يداجي، ولم يعمد مرة واحدة الى طمس مسؤوليتنا واستبعادها عن التداول، وفق ما شاع في الخطاب العربي آنذاك، باسم تحميل مصائبنا جميعها على عاتق الآخرين والغير، واعفاء انفسنا من مسؤولياتنا الاساسية. فتراه يشير بوضوح ساطع في٢٧ تشرين الاول ١٩٤٨ الى الخطأ المميت الذي ارتكبه شرق الاردن ودول الجامعة العربية عندما رفضوا اعلان حكومة فلسطينية، فلنستمع اليه: "ليس رائدنا مهما ان نعدد الامور باطلا، او نزيد العواقب سوءا... انه لم يكن من الممكن ان تترك فلسطين بلا حكومة منذ سبعة اشهر او ثمانية، وعلى اي حال قبل ١٥ ايار (تاريخ جلاء الانكليز)، بينما كان اليهود، منذ امد بعيد، قد جهزوا حكومة متجانسة، متماسكة، يقابلها من الجانب العربي فراغ ما برح قائما الى ايامنا هذه... فلو انه كانت لفلسطين حكومة عند اواسط ايار، لتضاءلت نكبة اللاجئين، واجتنبت صروف أخر، وهذا اقل ما يقال. الا انهم ابوا حينئذ ان يقيموا في فلسطين حكومة تحكمها، فأفجعوها اذ جعلوها بلدا محتلا، بديل ان يجعلوها بلدا يذود عن نفسه. انها لمسؤولية مرهقة سيسجلها التاريخ. وتقاسمت دول الجامعة العربية ما بينها ادارة فلسطين، فباتت وكأنها عمليا لم تكن..."

اما عن السبب في ذلك، فلم يتردد ميشال شيحا عن تسمية الامور باسمائها: "لقد تم هذا كله لأن النيات لم تكن صافية. والذين زعموا انهم يبتغون لفلسطين الخلاص، كانوا يطمعون ببعضها على الاقل... فالمغبة نصب اعيننا والقلب ينقبض حقا..."

وهل لا ينقبض قلب المرء حقا، وتأخذه غصة الحرقة والمرارة، بازاء المناورات العربية الصغيرة فيما بين الدول العربية نفسها، وطغيان الخلفيات الضيقة، وانعدام الاحساس بالخطر الواحد الذي يتهدد مصير الجميع، وغياب التضامن العربي ووحدة الموقف والعمل. وهي عوامل داخلية عربية صبّت وتصب بالتالي دائماً في مصلحة اسرائيل؟

– في ٦ آب ١٩٤٩، يعود ميشال شيحا الى تفصيل مخاطر هذا الضعف: "... ان مصلحة اسرائيل تقضي بأن تداوم على احياء عوامل الضعف الداخلي والخلل السياسي والاجتماعي في الحيّز العربي. فضلا عن الوهن العسكري، اذ يتسلح القوم خلقيا وسياسيا كما يتسلحون عسكريا. لسنا على يقين من أن الحكومات العربية تدرك ذلك، ونود لو كنا مخطئين في زعمنا".

" وحكومتنا هي اولى الحكومات التي نتمنى ان نراها متيقظة، وبالقدر نفسه، ولا شك، حكومة دمشق، وقد لاح انها، على الصعيد العسكري، شديدة الحذر... غني عن البيان ان قوة الامم لا تتأتى مما في حوزتها من آلات الحرب فحسب، وانما نلقاها ايضا، وفوق ذلك، في ما تنتجح من سياسة ومحالفات".

"من له اذنان ناصتتان فليسمع: فكما ان اسرائيل لا تريدنا مسلحين، فاسرائيل تريدنا وقد عرانا الوهن في كل شيء. اي ان ترانا بلا حلفاء وتسوسنا حكومات غير صالحة".

هدف اسرائيل رآه ميشال شيحا منذ البدء: اضعاف العرب عسكريا، وسياسيا واقتصاديا وداخليا واجتماعيا. وكم ظلت صرخته هذه صرخة في واد او في صحراء؟؟ وكم تكلف العرب من اكلاف باهظة نتيجة تأخرهم عن عقد التحالفات والعلاقات المتعددة التي تساعدهم في قضيتهم العادلة. ونتيجة تأخرهم عن رؤية طوق العزلة التي سعت اسرائيل الى شد خناقها عليهم، لتستأثر هي وحدها بالعلاقات والمحادثات والتحالفات مع الاوساط والدول صاحبة القرار في العالم.

"لم يعد ثمة ارض مقدسة" (٦ كانون الاول ١٩٤٩)

"قديما كانوا يتحدثون عن ارض مقدسة، اما الآن فهم لا يتحدثون الا عن اماكن مقدسة. والاماكن المقدسة نفسها تتضاءل يوما فيوما، بعد ان صدف عنها حماتها الطبيعيون وتلهت بقضمها اسرائيل..."

مرور الزمن لم يفعل غير تأكيد هذ الحقيقة المرة التي رآها ميشال شيحا آتية حاصلة لا ريب فيها. وكم حذّر من قدومها. ومن تخاذل حماة الارض المقدسة الطبيعيين عن حمايتها... بل ترك لاسرائيل ان تعمل قضما بها...

لذلك كان رأيه، دفاعاً عن الاماكن المقدسة ودفاعاً عن القدس وجوارها من الارض المقدسة، ان يصار الى تدويل القدس، درءاً للمصيبة الآتية. انقاذاً للقدس نفسها..

– في ٢٩ تموز ١٩٥٠ كتب ميشال شيحا: "انما الاسرائيليون يهاجمون السوريين يوماً، والمصريين يوماً. لقد لذّ لهم طعم الحرب... ومهما يكن، فليس من لا يسلّم بان سبيلنا، نحن اللبنانيين، هو التسلّح والوقوف على حذر، مهما ملنا الى المسالمة، فقد تتجدد الغارة المشؤومة التي شنّت البارحة على الطائرة المدنية فاوقعت بالضحايا..".

اذاً، لا سبيل لنا الا الاستعداد للمواجهة. هذا اللبناني المعروف بكونه عنوان الاعتدال ورجله الاول يعلن هذا الموقف وهذا السبيل. في الوقت الذي كانت تطلق وللاسف شعارات مغايرة كمثل "قوة لبنان بضعفه".

(تتبع حلقة ثانية)